

محاضرة

«الْعِلْمُ

وَأَثَرُهُ فِي تَرْكِةِ النَّفْسِ»

فضيلة الشيخ عبد الرزاق البدر

حفظه الله تعالى

ألقاها في مدينة قسنطينة (الجزائر)

١٤٣١هـ

النُّسخة الإلكترونية (٢)

الشيخ لم يراجع التفريع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلّل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

أيّها الإخوة الكرام هذه ساعة مباركة ولحظات طيّبة نجتمع فيها هذا الجمع الذي نسأل الله الذي يسهّره أن يبارك فيه، وأن يجعله لوجهه خالصاً ولنا جميعاً نافعاً وأن يثقل به موازيننا يوم نلقاه، ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله.

وقبل الدخول في موضوع حديثنا أحبّ -أيّها الإخوة- أن أذكّر لكم ما بداخلي حقيقةً من فرح وسرور بهذا اللقاء؛ لأنني بين إخوة كرام وأحبّة أفاضل، يسهّر الله لنا بمنّهِ وكرمه هذا الجمع، ولا أخفيكم كم كنتُ مشتاقاً لمثل هذا اللقاء، ولا أخفيكم أيضاً أن شعب الجزائر شعب حبيب إلى القلب، ويجمعني بكثير منهم حبٌّ في الله وتآخٍ فيه ﷺ.

اجتمعنا بمنّ مولانا ﷺ على طاعته وذكره سبحانه، وهذا فضله والفضل بيده ﷺ يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وهو شعب عندي معروف بالنبل والكرم والشّهامة والحرص على الخير، زاد الله الجميع خيراً وتوفيقاً وهدايةً وتسديداً وعوناً على طاعته وما يقرب إليه ﷺ.

أيّها الجمع الكريم، يقول نبينا -عليه الصلاة والسلام-: «لَا يَشْكُرُ الله مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ»،^(١) هذا اللقاء الذي يسهّره ربُّنا ﷺ قد جعل ﷺ بتيسيره أسباباً، وعلمنا نبیه -عليه الصلاة والسلام- شُكر من أسدى إلينا معروفاً، ولهذا فإنني أيضاً أستهلّ لقائي هذا بشكر كل من كان له يدٌ أو سببٌ في ترتيب هذا اللقاء، وأخصّ بالذكر والي ولاية قسنطينة بلد العلم والعلماء وجميع من كان لهم يد للترتيب لهذا اللقاء، وأشكر الإخوة الأفاضل القائمين على (جمعية سبيل الهدى الخيرية) على حرصهم واستضافتهم ومتابعتهم، وأسأل الله الكريم ربّ العرش العظيم أن يثيب الجميع خيراً.

وأيضاً -أيّها الإخوة- أشكركم جميعاً على حضوركم هذا المجلس، وأعلم أن عدداً من الإخوة

(١) أخرجه أبو داود رحمه الله (٤٨١١)، الترمذي رحمه الله (١٩٥٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «الصحيحة» (ح ٤١٦).

جاؤوا من مسافات بعيدة وتجشّموا تعبًا وعناءً حِرْصًا منهم على المشاركة والحضور في لقائنا هذا، فأسال الله ﷻ أن يُثيب الجميع، وأن يجزي الجميع خيرًا، وأن يتقبَّل مِنَّا ذلك بقبول حسن.

ونبدأ مستعينين بالله ﷻ متوكِّلين عليه مستلهمين مدّه وتوفيقه وطالبين عونهُ وتسديده في موضوعنا الذي اجتمعنا لأجله وهو عن:

العلم وأثره في تزكية النفوس.

والعلم أيها الإخوة نورٌ وضياءٌ لصاحبه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى]، فالعلم نورٌ يُضيء لصاحبه الطريق، وتستبين لصاحبه به الجادة فيكون في سيره على نورٍ من ربّه، يكون في سيره سائرًا في طريق مضيء وجادة منيرة فلا تلتبس عليه السبيل، والله يقول: ﴿أَفَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك]، ويقول: ﴿أَفَن يَعْلَمُ أَنَّما أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَن هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩]، ويقول: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ولهذا -أيها الإخوة الكرام- كان التّوجيه بطلب العلم من أمارات الخير ودلائل الفلاح، ففي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنّه قال: «من يُردُ الله به خيرًا يفقهه في الدين»،^(١) وفي حديث أبي الدرداء في «المسند»^(٢) وغيره أنّ النبي ﷺ قال: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنَحَتَهَا رِضًا لِّطَالِبِ الْعِلْمِ ، وَإِنَّهُ لَيَسْتَغْفِرُ لِعَالِمٍ مِّنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، حَتَّى الْحَيَاتُ فِي الْمَاءِ ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، لَمْ يَرِثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا ، وَإِنَّمَا وَرِثُوا الْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ ، أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ» ، والأحاديث في فضل العلم وبيان شرفه وعلو مكانته ورفيع منزلة أهله كثيرة جدًا، معلومة لدى طُلاب العلم وعموم الناس.

وكَلِّمًا كان العبد قريبًا من العلم، جادًا في تحصيله، مبتغيًا بذلك وجه ربّه ﷻ كان ذلك أمكن له في تزكيته لنفسه؛ لأنَّ النَّفْسَ إِنَّمَا تَزْكُو بِالْعِلْمِ ولا سبيل إلى تزكيتها إلّا به، وقد قال الله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [الجمعة: ٢] أي أنّ التّزكية التي تكون لهم إنّما تكون بتلاوة

(١) أخرجه البخاري رحمه الله (ح ٧١)، ومسلم رحمه الله (ح ١٠٣٧) من حديث معاوية رضي الله عنه.

(٢) (ح ٢١٦١٢).

الآيات ومعرفة ودراسة وحي الله - جلّ وعلا- وتنزيله، فالوحي هو الذي به تتزكى النفوس؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] وقال تعالى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وعندما يقف المسلم على موضوع التزكية وجوانب هذا الموضوع الفسيحة المباركة في ضوء الآيات والأحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ فإنه يقف فيهما على قواعد متينة وتأصيلات جامعة ومعالم بيّنة تُضيء للمرء طريقه في عمله على تزكية نفسه، وأعظم معلّم وقاعدة في هذا الباب العظيم المبارك أنّ التزكية منّة إلهية وهبة ربّانية، والله ﷻ الذي بيده الأمر يزكي من يشاء، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١]، وقال الله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]، ويقول الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانُ وَزَيْنُهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرِهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [٧] فضلاً من الله ورحمةً والله أعلم بحِكْمِهِ [٨] [الحجرات]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم يقولون في رجزهم:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا ضلنا ولا صلينا^(١)

أي: أنّ المنّة في ذلك كَهَ لله وحده، فهو المانّ والمتفضّل وهو - جلّ وعلا- الهادي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنِ اللَّهُ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقد كان نبينا صلوات الله وسلامه عليه يغرس هذا الأمر في نفوس الصحابة ويؤكد عليه تأكيداً متكرّراً، فكان يقول في خطبة الجمعة مستهلاً لها بحمد الله يقول: «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ [ونستهديه]» أي نطلب منه الهداية «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلّل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله» صلى الله وسلم عليه، وهي تُعرف بخطبة الحاجة جمعت قواعد الدين وثوابت الشريعة

(١) أخرجه البخاري رحمه الله (٦٦٢٠)، ومسلم (ح ١٨٠٣) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

وأصول الفرائض جمعًا عجيبًا ولها تأثيرًا بالغ في من يكرمه الله ﷻ لفهم مضامينها ومعرفة دلائلها، ولقد كانت هذه الخطبة سببًا بمنّ الله ﷻ وفضله لهداية قوم لدين الإسلام في قصة عجيبة خرّجها الإمام مسلم رحمه الله تعالى في «صحيحه»^(١) وهي قصة إسلام ضماد الأزدي^(٢) رضي الله عنه وذلك أنّ ضمادًا كان في جاهليّته راقياً يشتغل برقية الناس ومن كان منهم مصابًا بمسّ أو جنون أو نحو ذلك، وكان مشتهراً بالرقية، يقول: قدمت مكة فكنت كلما مررت بطريق في مكة سمعت: إنّ محمدًا مجنون، فقلت: لو أنّي رأيت هذا الرجل لعلّ الله يشفيه على يديّ، قال: فلقيته، فقال: يا محمد إنّني أرقي من هذه الرّيح، وإنّ الله يشفي على يدي من شاء، فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَمَّا بَعْدُ»، قال: فقال: أعد عليّ كلماتك هؤلاء، فأعادهنّ عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرّات، قال: فقال: لقد سمعتُ قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعتُ مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغنّ قاموس^(٣) البحر، -قعر البحر- يعني: كلمتك دخلت في الصميم، قال: فقال: هاتِ يدك أباعك على الإسلام، قال: فبأيعه، فقال رسول الله ﷺ: «وَعَلَى قَوْمِكَ»، قال: وعلى قومي. لأنّه كان رئيس وسيّد قومه، فكانت هذه الخطبة سببًا في دخوله رضي الله عنه وقومه لهذا الدّين العظيم المبارك، وهي قائمة على ذكر أصول عظيمة وقواعد متينة من تدبّرها وأحسن تأملها نفعه الله ﷻ بها نفعًا عظيمًا.

ولها في موضوعنا هذا دلالات وهدايات في جوانب عديدة منها جديرة بأن تتأمّل وتُتدبّر، كقوله مثلاً في هذه الخطبة: «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا»، وقوله: «من يهده الله فلا مضلّ له» وغيرها من ألفاظ هذه الخطبة العظيمة المباركة، والشّاهد أنّ الهداية والتزكية منّة إلهية، والرّب العظيم هو الهادي وهو ﷻ الذي يزكّي من يشاء وهو الموفق لا شريك له جلّ وعلا.

وبهذا يُعلم أنّ أعظم أصل في هذا الباب -باب التزكية- أنّها منّة إلهية لا يُلجأ في طلبها إلّا إلى الله ﷻ الذي بيده أزمّة الأمور، فيُحسّن العبد صلته بالله ويُحسّن إقباله على الله، ويصدق مع الله ﷻ،

(١) (ح ٨٦٨).

(٢) من أزد شنوءة.

(٣) في «صحيح مسلم»: ناعوس، والصحيح (قاموس) كما ذكر ذلك النووي في شرحه على «صحيح مسلم» أنه المشهور في غير «صحيح مسلم».

وَيُحْسِنُ فِي سُؤَالِ رَبِّهِ - جَلَّ وَعَلَا - وَطَلِبُهُ طَالِبًا مِنْهُ الْهَدَايَةَ وَالصَّلَاحَ وَالزَّكَاةَ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَخِيبُ عَبْدَ دَعَاهِ وَلَا يَرُدُّ مُؤْمِنًا نَادَاهُ وَهُوَ الْقَائِلُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة].

ثم إنَّ هذا - أيُّها الإخوة الكرام - يُبَيِّنُ لَنَا مَكَانَةَ الدُّعَاءِ فِي هَذَا الْبَابِ الْعَظِيمِ، وَفِي كُلِّ بَابٍ، وَقَدْ قَالَ أَحَدُ السَّلَفِ: (تَأَمَّلْتُ الْخَيْرَ فَإِذَا هُوَ أَبْوَابٌ عَدِيدَةٌ، وَتَأَمَّلْتُ ذَلِكَ كُلَّهُ بِيَدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَعَلِمْتُ أَنَّ الدُّعَاءَ مِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ)، وَلِهَذَا جَدِيرٌ بِالْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يُكْثِرَ الدُّعَاءَ وَالسُّؤَالَ وَالطَّلِبَ وَالْمُنَاجَاةَ لِلَّهِ تَعَالَى أَنْ يَجْزِيَهُ، أَنْ يُصْلِحَ قَلْبَهُ، أَنْ يَزَكِّيَ نَفْسَهُ، أَنْ يُثَبِّتَهُ عَلَى صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ، أَنْ يُعِيْذَهُ مِنْ سَبِيلِ الزَّيْغِ، أَنْ لَا يَكِلَهُ إِلَى نَفْسِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ.. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الدَّعَوَاتِ الْمَأْثُورَةِ عَنْ نَبِيِّنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَكَانَ مِنْ أَكْثَرِ دُعَائِهِ تَعَالَى «رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ»، ^(١) وَكَانَ مِنْ أَكْثَرِ دُعَائِهِ أَيْضًا «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، ^(٢) قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (مَا أَكْثَرَ دُعَاءَكَ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ) ثُمَّ قَالَتْ لَهُ: (أَوَإِنَّ الْقُلُوبَ تَتَقَلَّبُ؟) قَالَ: «مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا هُوَ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ يَقْلِبُهُ كَيْفَ يَشَاءُ، فَإِنْ شَاءَ أَقَامَهُ وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ»، ^(٣) وَفِي الْقُرْآنِ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران]، وَفِي دُعَاءِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ [إبراهيم] لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ مُصَلِّيًا إِلَّا إِذَا جَعَلَكَ اللَّهُ مِنَ الْمَصَلِّينَ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ أَبْنَاؤُكَ مُصَلِّينَ إِلَّا إِذَا جَعَلَهُمُ اللَّهُ كَذَلِكَ قَالَ: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ [٤] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الدَّعَوَاتِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي كَانَ يَدْعُو بِهَا - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا مَا جَاءَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» ^(٤): «اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي وَاجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلْ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ».

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (ح ٦٣٨٩)، وَمُسْلِمٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٢٦٩٠) مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (ح ٢١٤٠)، وَابْنُ مَاجَةَ (ح ٣٨٣٤)، وَصَحَّحَهُ الشَّيْخُ الْأَلْبَانِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) خَرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (ح ٣٥٢٢) وَصَحَّحَهُ الشَّيْخُ الْأَلْبَانِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) (ح ٢٧٢٠). مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكذلك دعوة المكروب «اللَّهُمَّ رَحِّمْتَنِي أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»^(١).

وفي موضوع التَّزْكِيَةِ خصوصًا جاء في هذا الباب دعاء عظيم في «صحيح مسلم»^(٢) من حديث زيد بن أرقم يقول فيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكَّاهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا» يتوسَّل إلى الله جَلَّ وعلا بهذين الاسمين العظيمين الوليِّ والمولى وهما دالَّان على ولاية الله ﷻ الخاصَّة لعبده المؤمن وتوليَّه له توفيقًا وتسديدًا وعونًا وتثبيتًا وحفظًا، يتوسَّل إلى الله -جلَّ وعلا- بهذين الاسمين أن يؤتي نفسه تقواها وأن يزكِّيها، فإنَّ النَّفْسَ لا تزكو إلَّا إذا زكَّاهَا الرَّبُّ جَلَّ وعلا.

ونسأل الله الكريم ربَّ العرش العظيم أن يؤتي نفوسنا جميعًا تقواها وأن يزكِّيها إنَّه -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- خير من زكَّاهَا إنَّه هو وليُّها ومولاها.

أيُّها الإخوة الكرام.. الحديث عن تزكية النَّفْسِ في ضوء دَلَالَةِ الآيات والنُّصوص والأحاديث المأثورة عن النَّبِيِّ ﷺ حديث واسع، وله جوانب كثيرة جدًّا، وفي لقائنا هذا سأقف وقفات مع جوانب مهمَّة وقواعد عظيمة مستمدَّة من كتاب الله ﷻ وسنَّة نبيِّه ﷺ كلُّها تدور حول فقه تزكية النَّفْسِ.

نبدأ أولًا بحديث مختصر عن النَّفْسِ؛ ما هي وما حقيقتها؟ النَّفْسُ البشرية وما هي صفاتها؟ ونقف أيضًا في هذا الباب على بعض الأمثلة أو الأمثال العظيمة التي فرضها أهل العلم التي توضَّح ما يتعلَّق بالنَّفْسِ البشرية، وكيف أنَّ أمر تزكية النَّفْسِ يحتاج من العبد إلى مُعالِجة مستمرَّة، وعناية دائمة، ورعاية لهذه النَّفْسِ لكي لا تنفلت وتضيع، وقد جاء في القرآن الكريم ذكر ثلاثة أوصاف للنَّفْسِ مشهورة معلومة:

فُوصِفَتْ بالنَّفْسِ المَطمِئِنَّة.

وُوصِفَتْ بالنَّفْسِ الأَمَّارَةُ بالسُّوء.

وُوصِفَتْ بالنَّفْسِ اللَّوَّامَةُ.

وهي ثلاث صفات للنَّفْسِ مشهورة معلومة، وهذه الصِّفَات ترجع إلى أحوال تتعلَّق بالنَّفْسِ، ولها

(١) أخرجه أبو داود (ح ٥٩٠) من حديث أبو بكرة نفع بن الحارث رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) (ح ٢٧٢٢).

في كل حال من هذه الأحوال ما يُناسبها من وصف.

فإذا كانت نفس الإنسان اطمأنت بالإيمان وذكر الله وعبادته وحُسن الإقبال عليه استحققت هذا الوصف: النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الزمر: ٢٨) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾ [الرعد].

بينما إذا كانت هذه النفس تستحث صاحبها على فعل المحرمات، وارتكاب الآثام، وتقوده إلى مواطن المنكرات ومواضع الرذيلة وتدفعه إلى فعل القبائح والرذائل فإنها في هذه الحال نفس أمارة بالسوء.

بينما إذا كانت النفس تلوم صاحبها -وهي النفس اللوامة- على فعله الخطأ، أو تقصيره في واجب، أو تفريطه في طاعة فهي نفس لوامة، وهي صفة لها أي أنها تلوم صاحبها. ولوم النفس لصاحبها أيضاً على قسمين كما نبّه أهل العلم:

قد تكون نفساً أمارة بالسوء، وتلوم صاحبها على عدم ازدياده من السوء وتماديهِ في الخطأ. وقسمٌ يتعلّق بالنفس المطمئنة تلوم نفسها أو تلوم صاحبها على تفريطه وتقصيره وعدم ازدياده من الخير.

فهذه الأوصاف الثلاثة للنفس المطمئنة والأمارة بالسوء واللوامة أحوال تتعلّق بالنفس، ولها من هذه الأوصاف بحسب حالها، ولهذا قد تكون النفس في اليوم الواحد أو في الساعة الواحدة متقلّبة، وكلّ إنسان يعلم ذلك من نفسه وهذه التقلّبات للنفس راجعة إلى الواردات التي ترد على النفس، فالتنفس بتقلّباتها بحسب الواردات التي ترد عليها، أريتم أنّ الإنسان عندما يُكرّمه الله -جلّ وعلا- بدخول مجلس ذكر وحلقة علم ومكان وعظ وتذكير بالله ﷻ كيف أنّ نفسه بسبب هذا الوارد ترتقي نحو الفضائل، وكيف أنّ نفسه تطمئنّ حتى إنّ كثيراً من الناس يحدث بذلك عن نفسه يقول: والله إنني إذا دخلت المسجد وصليت وسمعت العلم والتذكير بالله أجد طمأنينة وأجد راحة وأجد كذا إلى آخره يخبر بذلك عن نفسه، هذه الطمأنينة للنفس حصلت بهذه الواردات المباركة التي هيّاها الله ﷻ لهذا الإنسان.

بينما إذا ذهب الإنسان إلى الأماكن التي تثير في قلبه المحرّم والرذيلة والفاحشة والفساد يجد أنّ نفسه انتقلت إلى نفس أمارة بالسوء.

وهذه المعاني تؤكد لنا -أيها الإخوة الكرام- أن النفس تحتاج من العبد إلى محاسبة وإلى مجاهدة، وهذه المحاسبة والمجاهدة والمتابعة للنفس هي نوع من الجهاد في سبيل الله، وقد قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في خطبته في حَجَّةِ الوداع: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ مَنِ الْمُسْلِمُ؟ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ». (١)

وثبت عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في «معجم الطبراني» وغيره أنه قال: «أَفْضَلُ الْجِهَادِ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي ذَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»، (٢) ولا شك أن هذا جهاد، ولا شك أن النفس تحتاج إلى جهاد وتحتاج إلى متابعة، وقد يجد الإنسان في بداية الأمر شيء من المشقة وشيء من الصعوبة، وإذا مضى مستعيناً بالله بلغ بإذن الله ﷻ مبلغاً عظيماً مباركاً في تركيته لنفسه.

وأقف هنا -أيها الإخوة- لأعرض لكم مثلين عظيمين ضربهما عالمان جليلان لهما عناية دقيقة في هذا الباب؛ باب تزكية النفس.

المثل الأول للإمام الآجري رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى ذكره في كتابه «أدب النفوس» كتابه أدب النفوس وإن كان صغير الحجم إلا أنه كبير الفائدة عظيم النفع.

والمثل الثاني ضربه العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في كتابه «مدارج السالكين».

نقف أولاً مع المثل الذي ضربه الإمام الآجري رَحِمَهُ اللَّهُ وأؤكد -أيها الإخوة- على التأمل في المثل وفي مضامينه ودلالاته وأبعاده؛ لأن الأمثال من شأنها تقريب المعاني وجعلها بمثابة الأشياء الملموسة المحسوسة فيتضح الأمر تماماً، يقول الآجري رَحِمَهُ اللَّهُ: (وأنا أمثل لك مثلاً لا يخفى عليك أمرها إن شاء الله) يعني: إذا تأملت ذلك، قال: (اعلم أن النفس مثلها كمثل المهر الحسن من الخيل، إذا نظر إليه الناظر أعجبه حُسْنُهُ وبهاؤه، فيقول أهل البصيرة به) يقولون لصاحب هذا المهر (لا يُتَنَفَّعُ بهذا حتى يُرَاضَ رياضة حسنة، ويؤدَّب أدباً حسناً، فحينئذ يُتَنَفَّعُ به، فيصلح للطلب والهرب، ويحمد راكمه عواقب تاديبه ورياضته. فإن لم يؤدَّب لم يُتَنَفَّعْ بحُسْنِهِ ولا ببهائه، ولا يحمد راكمه عواقبه عند الحاجة. فإن قبل: صاحب هذا المهر قول أهل النصيحة والبصيرة به، علم أن هذا قولٌ صحيح فدفعه إلى

(١) أخرجه أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ في المسند (ح ٢٣٨٤٩) من حديث فضالة بن عبيد رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) صححه الألباني في الصحيحة (ح ١٤٩١)، وهو في «صحيح الجامع» (ح ١١٢٩).

رائض فراضه. ثم لا يصلح أن يكون الرّائض إلّا عالمًا بالرياضة، معه صبرٌ على ما معه من علم الرياضة، فإن كان معه علمٌ بالرياضة ونصيحةٌ انتفع به صاحبه، فإن كان الرّائض لا معرفة معه بالرياضة، ولا علم بأدب الخيل، أفسد هذا المهر وأتعب نفسه، ولم يحمّد راكمه عواقبه، وإن كان الرّائض معه معرفة بالرياضة والأدب للخيل إلّا أنّه مع معرفته لم يصبر على مشقّة الرياضة، وأحبّ التّرفيه لنفسه، وتوانى عمّا وجب عليه من النّصيحة في الرياضة، أفسد هذا المهر، وأساء إليه، ولم يصلح للطلّب، ولا للهرب، وكان له منظر بلا مخبر، فإن كان مالكة هو الرّائض له، ندم على توانيّه يوم لا ينفع النّدم، وحين نظر إلى غيره في وقت الطّلّب، قد طلب فأدرك، وفي وقت الهرب قد هرب فسلم، وطلب هو فلم يدرك، وهرب فلم يسلم، كل ذلك بتوانيّه، وقلة صبره بعد معرفته منه، ثم أقبل على نفسه يلومها ويوبّخها، فيقول: لم فرّطت؟ لم قصّرت؟، لقد عاد عليّ من قلة صبري كلّ ما أكره. والله المستعان. اعقلوا -رحمكم الله- هذا المثل، وتفقهوا به، تُفْلِحُوا وتنجحوا).

ثم نقل رَحِمَهُ اللهُ تعالى عن وهب بن منبه وهو من علماء التّابعين، قال: (النّفس كنفس الدّواب، والإيمان قائد، والعمل سائق، والنّفس حرون، فإن فتر قائدها حرنت على سائقها، وإن فتر سائقها ضلّت على الطّريق).^(١)

هذا المثل الأوّل وهو للإمام الأجرى -رَحِمَهُ اللهُ تعالى- ويوضّح أن النّفس البشريّة تحتاج من صاحبها إلى رياضة وصبر عليه وأن يكون على علم بالأمر التي تصلح النّفس وتزكّيها دلائل وسنة نبيّه ﷺ وأنّ الإنسان فرق في هذا الجانب سيندم في نهاية المطاف غاية النّدم.

والمثل الثّاني للإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تعالى أوردته في كتاب «مدارج السّالكين»^(٢) قال رَحِمَهُ اللهُ: (فالنّفس جبل عظيم شاق في طريق السّير إلى الله ﷻ وكلّ سائر لا طريق له إلّا على ذلك الجبل، فلا بدّ أن ينتهي إليه؛ ولكن منهم) أي: من الناس (من هو شاق عليه، ومنهم من هو سهل عليه وإنّه ليسير على من يسّره الله عليه).

وفي ذلك الجبل أودية وشعوب وعقبات ووهود وشوك وعوسج وعُلق وشبرق ولصوص يقطعون الطّريق على السّائرين، ولا سيّما أهل اللّيل المدلّجين، فإذا لم يكن معهم عدد الإيمان ومصابيح اليقين تتقدّ بزيت الإخبات وإلّا تعلّقت بهم تلك الموانع وتشبّثت بهم تلك القواطع وحالت بينهم وبين السّير،

(١) (ج/١ ص ٤٠)، ت: حامد الفقي، دار ابن الهيثم، القاهرة.

فإن أكثر السَّائرين فيه رجَعُوا على أعقابهم لما عجزوا عن قطعه واقتحام عقباته، والشَّيْطَان على قُلَّةِ ذلك الجبل يحذِّر النَّاس من صعوده وارتفاعه ويخوِّفهم منه، فيَتَفَقَّ مشقَّة الصُّعُود وقُعود ذلك المخوِّف على قُلَّتِهِ، وضعف عزيمة السَّائر ونيَّته فيتولَّد من ذلك: الانقطاع والرُّجوع والمعصوم من عصمَه الله.

وكَلَّمَا رَقَى السَّائر في ذلك الجبل اشتدَّ به صياح القطع وتحذيره وتخويفه فإذا قطعه وبلغ قُلَّتِهِ: انقلبت تلك المخاوف كلَّهن أماناً وحينئذ يسهل السَّير وتزول عنه عوارض الطَّرِيق ومشقَّة عقباتها، ويرى طريقاً واسعاً آمناً يفضي به إلى المنازل والمناهل، وعليه الأعلام وفيه الإقامة قد أعدت لركب الرَّحْمَن، فبين العبد وبين السعادة والفلاح: قوَّة عزيمة وصبر ساعة وشجاعة نفس وثبات قلب، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم).

هذا أَيْهَا الإخوة المثل وكذلك المثل الذي قبله يبيِّن لنا حال النَّفس، وأن النَّفس البشريَّة تحتاج من صاحبها إلى تعاهد، وإلى متابعة، إلى معالجة، وإلى مداواة، وإلى رعاية، فإن لم يتابعها، إن لم يراقبها، إن لم يجاهدتها تنفلت منه وتضيع، ومن الخير للإنسان أن يحاسب نفسه ما دام في دار المهلة ودار العمل، قبل أن يحاسبه ربُّ العالمين في دار الجزاء يوم القيامة.

ولهذا جاء عن الخليفة الرَّاشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا وزنوها قبل أن توزن فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزيّنوا للعرض الأكبر يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية).

نعم - أَيْهَا الإخوة الكرام - إنَّ من الخير للعبد أن يحاسب نفسه الآن في هذه الحياة الدُّنيا قبل أن يمثَّل للحساب يوم القيامة، فمحاسبة الإنسان لنفسه ووزنه لها في هذه الحياة خيرٌ له؛ لأنَّ المحاسبة تورث العمل والصَّلاح والاستقامة، وهذه المحاسبة للنَّفس هي التي تورث بإذن الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - صلاحاً وفلاحاً، ولقد كُثِرَت النُّقول عن السَّلف - رحمهم الله تعالى - في الحثِّ على محاسبة النَّفس ومعاتبتها ومداواتها.

يقول الحسن البصري رضي الله عنه: (إنَّ العبد لا يزال بخير ما كان له واعظٌ من نفسه وكانت المحاسبة من همته).

وقال ميمون بن مهران: (لا يكون العبد تقيّاً حتَّى يكون لنفسه أشدَّ محاسبة من الشَّريك لشريكه).

ولهذا قيل: النَّفس كالشَّريك الخوَّان إن لم تحاسبه ذهب بمالك.

وقال الحسن رضي الله عنه: (المؤمن قوَّام على نفسه يحاسب نفسه، وإنَّما خفَّ الحساب يوم القيامة على

قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنَّما شقَّ الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة.

إنَّ المؤمن يبادره الشَّيء ويعجبه فيقول: والله إنِّي لأشتهيك وإنَّك لمن حاجتي؛ ولكن والله ما من حيلة إليك هيهات هيهات، حيل بيني وبينك، ويقرب منه الشَّيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ما أردت بهذا، ما لي ولهذا، والله لا أعود إلى هذا أبداً، إنَّ المؤمنين قوم أوقفهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم، إنَّ المؤمن أسير بالدُّنيا يسعى في فكاك رقبتة لا يأمن شيئاً حتَّى يلقي الله يعلم أنَّه مأخوذ عليه في سمعه وفي بصره وفي لسانه وفي جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كله).

والآثار عن السلف رحمهم الله في هذا المعنى كثيرة.

ويتأكَّد هذا المقام -مقام تزكية النفس- في مثل الأزمنة التي تكثر فيها الفتن والصَّوارف التي تصرف الإنسان عن الخير وتشغله بما يُسخط الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- ويغضبه.

وإذا كان عبد الله بن المبارك وهو من علماء التَّابعين يقول رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى في زمانه: (إنَّ الصَّالحين فيما مضى كانت أنفسهم توافيهم على الخير عفواً، وإنَّ أنفسنا لا تكاد توافينا إلَّا على كُره؛ فينبغي لنا أن نكرهها) إذا كان ذلك يقوله رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى في ذلك الزَّمان فكيف إذن بالأزمنة المتأخِّرة مع كثرة الفتن وكثرة الصَّوارف وكثرة الشَّواغل التي تلهي الإنسان وتصرفه عن الخير وتصرفه عمَّا يقرب إلى الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- ويدني منه سبحانه.

أيُّها الإخوة الكرام.. نأتي بعد هذا إلى الحديث عن حقيقة تزكية النَّفس، وما هي الأمور التي تزكو بها النَّفس البشريَّة، ويمكن إجمال ذلك -أيُّها الإخوة الكرام- في أمور ثلاثة:

الأمر الأول: وهو أساس تزكية النَّفس، ولا زكاء لنفس إلَّا إذا قامت عليه وتأسَّست عليه، ألا وهو الإيمان بالله، وتوحيده ﷻ، وإخلاص الدِّين له، ألا وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلَّا الله بما تعنيه هذه الكلمة من توحيد وإخلاص وإفراد لله ﷻ بالذُّل والخضوع والمحبة والامتثال.. وجميع أنواع العبادة.

وهذا أساس تزكية النَّفس، والنَّفس بأعمالها الصَّالحة وطاعاتها الزَّكية مثلها مثل شجرة مباركة، ومن المعلوم أنَّ الأشجار لا قيام لها إلَّا على أصولها، وقد قال الله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾

[إبراهيم].

وبهذا يُعلم أنَّ تزكية النَّفس له أساس لا تقوم التَّزكية إلَّا عليه، وهو توحيد الله وإخلاص الدِّين له -

جَلَّ وعلا-، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝١﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۝١٠﴾ [الشمس]، وقال الله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ۝٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴿[فصلت] قال ابن عباس: (لا يشهدون أن لا إله إلا الله)، وقال مجاهد: (لا يزكون أعمالهم) أي: ليست زاكية، وقيل: لا يطهرونها بالإخلاص، كأنه أراد والله أعلم أهل الرِّياء فإنه شرك.

وقال الله ﷻ في قصة موسى مع فرعون: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَزَكَّى ۝١٨﴾ [النازعات] أي: بالإخلاص والتَّوْحِيدَ لله جَلَّ وعلا.

فالتَّزْكِيَةُ شجرة مباركة عظيمة الثَّمَر، كبيرة الأثر، لها أصل لا قيام لها إلا عليه؛ ألا وهو توحيد الله ﷻ وإخلاص الدِّين له ﷻ، وكلَّمَا كان هذا التَّوْحِيدُ والإخلاص والإيمان بالله متمكَّنًا من القلب كان هذا أبلغ في نَماء هذه الشَّجرة وكونها مثمرة أطيب الثَّمَر ولذيذه وحسنه ونافعه.

الأمر الثاني: من جوانب تزكية النَّفس تزكيَّتها بفرائض الإسلام واجبات الدِّين وحسن التَّقَرُّبِ إلى الله ﷻ بفعل ما أمر وترك ما نهى عنه -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- وزجر.

ولهذا ينبغي أن يُعلم أنَّ التَّزْكِيَةَ لها جانبان لا تكون إلا بهما، يدلُّ عليهما أصل هذه الكلمة اللُّغوي، وأيضا دلالة هذه الكلمة في نصوص الشَّرْع، وإذا نظرنا في كتب اللُّغة في معنى التَّزْكِيَةِ ومدلولها نجد أنَّ لها جانبان كلاهما من معاني التَّزْكِيَةِ وهما الطَّهارة والنَّماء. فالتَّزْكِيَةُ طهارة ونماء ولهذا يقال: زكى الزَّرع إذا طاب وزالت عنه المؤذيات التي تُضعف نماءه، وتُسمَّى الصَّدقة المطلوبة زكاةً لأنها تطهِّر المال ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، ولأنَّها أيضًا في الوقت نفسه سبب لنماء المال، فالتَّزْكِيَةُ طهارة وفي الوقت نفسه نماء؛ طهارةً بالبعد عن الأعمال المحرَّمة والمعاصي والآثام، ونماءً بفعل الطَّاعات والعبادات المقرَّبة إلى الله ﷻ.

وعليه -أيُّها الإخوة- فإنَّ التَّزْكِيَةَ لابدَّ فيها من فعل الأوامر التي فرضها الله ﷻ على عباده وأوجبها عليهم، ولا بدَّ أيضا في الوقت نفسه من البعد عن النَّواهي والآثام؛ ففعل الأمر تزكيةٌ، وترك النَّهي أيضا تزكيةٌ، فالتَّزْكِيَةُ تخليةٌ وتحليةٌ، تخليةٌ للنَّفْس بإبعادها عن الرَّذائل والخسائس، وتحليةٌ لها بفعل الأوامر والطَّاعات المقرَّبة إلى الله ﷻ.

فالصَّلَاةُ تزكيةٌ؛ قد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وجاء في «الصحيحين»^(١) من حديث أبي هريرة أن النبي -عليه الصلاة والسلام- قال: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟» قَالُوا : لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ ، قَالَ : «فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَ الْخَطَايَا».

الزكاة تزكية ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣]، والصيام تزكية ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣]، الحج تزكية جميع الطاعات التي أمر الله ﷻ عباده بها كلها داخله في هذا الباب؛ باب تزكية النفس، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ [١٤] وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ [الأعلى] الذكر تزكية للنفس؛ بل هو أعظم باب تزكو به النفوس، وتتطهر به القلوب وتطمئن، وكم من الأذكار المشروعة من الآثار المباركة على العبد في الدنيا والآخرة من وتنقية للنفس من أدرانها وتفريطها وتقصيرها.

والحديث في هذا الجانب قد يطول لكنني أكتفي بمثل واحد من السنة وهو ما رواه الترمذي^(٢) في «جامعه» أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِشَجَرَةٍ يَابِسَةٍ الْوَرَقِ فَضَرَبَهَا بِعَصَاهُ فَتَنَازَرُ الْوَرَقُ ، فَقَالَ : «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللهُ أَكْبَرُ لَتَسَاقُطُ مِنْ ذُنُوبِ الْعَبْدِ كَمَا تَسَاقُطُ وَرَقُ هَذِهِ الشَّجَرَةِ» فذكر الله ﷻ تزكية للنفوس وطهارة لها.

وعموم الطاعات والعبادات المقربة إلى الله -جلّ وعلا- كلها داخله في هذا الباب باب تزكية النفس.

كذلك ترك النواهي والمحرمات واجتناب الكبائر والموبقات بابٌ مهمٌ للغاية في تزكية النفس، فإذا غشي العبد الحرام واكتسب الآثام يكون بذلك دنس نفسه ودساها وحقرها بحسب فعله لتلك المحرمات واكتسابه لتلك الآثام، وفي هذا تأمل قول الله سُبْحَانَهُ: ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور: ٣٠] فالبعد عن المحرمات واجتناب الكبائر والآثام كل ذلكم -أيها الإخوة الكرام- داخل في باب تزكية النفس، في هذا المعنى أيضاً قول الله تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ أَنْجِعُوا فَأَنْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

(١) أخرجه البخاري رحمه الله (ح ٥٢٨)، ومسلم رحمه الله (٦٦٧). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) (ح ٣٥٣٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وحسنه الألباني رحمه الله.

عليه (٢٨) ﴿[النور].

الأمر الثالث في باب تزكية النفس: تزكيتها بفعل الرغائب والمستحبات، وهذه مرحلة تأتي بعد مرحلة الفرائض، وفي الحديث القدسي: «يقول الله تعالى: مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»^(١) فهذه مجالات التزكية وجوانبها تتلخص في أمور ثلاثة:

الأول: الأصل؛ وهو توحيد الله والإيمان به وبكل ما أمر ﷺ عباده بالإيمان به.

والثاني: تزكيتها بفعل الفرائض والواجبات وترك الكبائر والمحرمات.

والثالث: تزكيتها بفعل الرغائب والنوافل والمستحبات.

ثم أيها الإخوة الكرام تزكية النفوس كما يقول ابن القيم رحمته الله تعالى في كتابه «مدارج السالكين»: أمرها مسلم إلى الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وبلغهم إياها، وجعلها على أيديهم دعوة وتعليمًا وبيانًا وإرشادًا، لا خلقًا ولا إنعامًا، فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(٢) [الجمعة]، وقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾^(٣) [البقرة].

يقول سفيان بن عيينة رحمته الله: (إنَّ رسول الله ﷺ هو الميزان الأكبر، وعليه تُعرض الأشياء على خلقه وسيرته وهديه فما وافقها هو الحق، وما خالفها هو الباطل).

هذا هو -أيها الإخوة- ميزان دقيق ومهم للغاية في باب تزكية النفس، تزكية النفس ليس أمرًا مسلمًا للإنسان ليزكي نفسه بأي طريقة شاء، وبأي سبيل أراد! لا؛ بل لا بد في باب تزكية النفس من وزن الأعمال بما جاء عن النبي الكريم -عليه الصلاة والسلام-، فخلقته وسيرته وهديه ﷺ ميزان تعرض عليه الأعمال، وتقاس عليه الأمور، وليس للإنسان أن يتخذ لنفسه ما شاء من الأمور أو الوسائل التي يزعم أنها تزكي نفسه، ولهذا يقول ابن القيم رحمته الله: (تزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد، فمن زكى

(١) أخرجه البخاري رحمته الله (ح ٦٥٠٢).

بالرياضة والمجاهدة والخلوة التي لم يجئ بها الرُّسل) يعني: جاء بأعمال يزعم أنَّها تزكِّي النفس لكن لم تأت على الرُّسل -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- (هو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه وأين يقع رأيه من معرفة الطَّبيب، فالرُّسل أطباء القلوب، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم وعلى أيديهم وبمحض الانقياد والتَّسليم لهم، والله المستعان).

بعض النَّاس يظنُّ في هذا الباب أن التَّزكية تكون بالتَّشديد على النَّفس والقسوة عليها وحرمان النَّفس من حقوقها التي فطر الله ﷻ النَّفوس على الاحتياج إليها، وقد قال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»^(١) بعض النَّاس يظن أن تزكيته لنفسه تكون بحرمان النَّفس من حقوقها المباحة أو بالقسوة على النَّفس والشَّدة عليها أو بالرُّعونة، ونحو ذلك من التصرُّفات التي يظنُّ أنَّه بمثل هذه المسالك يزكِّي نفسه، وهيهات أن تكون تزكية النَّفس بمثل ذلك، فتزكية النَّفس لا تكون لا بالإفراط ولا بالتفريط، لا تكون بالزيادة ولا بالتقصير؛ بل تكون بالتَّوسط والاعتدال وذلك بلزوم هدي النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ونهجه القويم صَلَّواتُ اللهِ وَسَلَامُهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْهِ.

فلا بدّ من الوسطية والاعتدال في باب تزكية النَّفس؛ لأنَّ تزكية النَّفس مطلوب للجميع لكن تتفاوت الوسائل فمن النَّاس من يريد أن يزكِّي نفسه بالتَّشديد والتَّعسير والقسوة على النَّفس، وفي الحديث: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا»^(٢) ومن النَّاس من يزكِّي نفسه بوسائل وطرائق لا أصل لها ولا أساس، فالنَّاس في هذا الباب بين إفراط وتفريط.

وخيار الأمور أوسطها لا تفريطها ولا إفراطها

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ»^(٣): (فإنَّ النَّفْسَ متى انحرفت عن التَّوَسُّط انحرفت إلى أحد الخلقين الذَّميمين ولا بد:

فإذا انحرفت عن خلق التَّواضع انحرفت: إما إلى كبر وعلو، وإما إلى ذل ومهانة وحقارة.

وإذا انحرفت عن خلق الحياء انحرفت: إما إلى قِحَّة وجراة، وإما إلى عجز وخور ومهانة، [بحيث يطمع في نفسه عدوّه ويفوّته كثير من مصالحه، ويزعم أنَّ الحامل له على ذلك الحياء، وإنما هو المهانة

(١) أخرجه البخاري رَحِمَهُ اللهُ (ح ١٩٦٨) من حديث أبو جحيفة وهب بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) أخرجه البخاري رَحِمَهُ اللهُ (ح ٣٩) ن حيث أبي هريرة رَحِمَهُ اللهُ.

(٣) (ج ٢/ ص ٥٦).

والعجز وموت النفس].

وكذلك إذا انحرفت عن خلق الصبر المحمود انحرفت: إما إلى جزع وهلع وجشع وتسخط وإما إلى غلظة كبد وقسوة قلب وتحجر طبع [كما قال بعضهم:

تبكي علينا ولا نبكي على أحد فنحن أغلظ أكبادا من الإبل]

وإذا انحرفت عن خلق الحلم انحرفت: إما إلى الطيش والترف والحدة والخفة وإما إلى الذل والمهانة والحقارة [ففرق بين من حلمه حلم ذل ومهانة وحقارة وعجز وبين من حلمه حلم اقتدار وعزة وشرف كما قيل:

كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لا جئ إليها اللئام]

وإذا انحرفت عن خلق الأناة والرفق انحرفت: إما إلى عجلة وطيش وعنف وإما إلى تفريط وإضاعة، [والرفق والأناة بينهما].

وإذا انحرفت عن خلق العزة التي وهبها الله للمؤمنين انحرفت: إما إلى كبر وإما إلى ذل [والعزة المحمودة بينهما].

وإذا انحرفت عن خلق الشجاعة انحرفت: إما إلى تهور وإقدام غير محمود وإما إلى جبن وتأخر (مذموم).

وهكذا نجد أن النفس إذا خرجت في باب التزكية عن حد الاعتدال والتوسط الذي كان عليه نبينا ﷺ تنحرف إلى ما هو مذموم.

وخيار الأمور أوسطها لا تفريطها ولا إفراطها
ويجب أن يُعلم في هذا الباب أن خير العمل ما كان لله أطوع ولصاحبه أنفع، وقد يكون ذلك أيسر العاملين، وقد يكون أشدهما، فليس كل شديد باطلا ولا كل يسير مقبولا، بل الشرع إذا أمرنا بأمر شديد فإنما يأمرنا به لما فيه من المنفعة لا لمجرد تعذيب النفس، وقد قال -عليه الصلاة والسلام-: «إِنَّمَا بُعِثْتُ مُيسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ»^(١)، وقال لمعاذ وأبي موسى لما بعثهما إلى اليمن: «يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنْفِّرَا»^(٢) وقال -عليه الصلاة والسلام-: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ»،

(١) أخرجه البخاري رحمه الله (ح ٦١٢٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري رحمه الله (ح ٣٠٣٨)، ومسلم رحمه الله (ح ١٧٣٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

وقال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ»^(١)، وَالشَّيْطَانُ لَهُ مَدَاخِلُ فِي هَذَا الْبَابِ عِنْدَمَا يَرَى الْإِنْسَانَ قَدْ أَقْبَلَ عَلَى تَرْكِةِ النَّفْسِ، إِمَّا أَنْ يَدْخُلَهُ فِي بَابِ تَشْدِيدٍ وَتَعْسِيرٍ عَلَى النَّفْسِ بِتَرْكِ الْمُبَاحَاتِ وَتَعْذِيبِ النَّفْسِ بِقَلَّةِ الْمَطْعَمِ وَكِبَرِ الْبَدَنِ، الْمَنْعِ مِنَ الْمُبَاحَاتِ، أَوْ يَنْقُلُ الْإِنْسَانَ نَقْلَةً أُخْرَى بَعِيدَةً يَحْرِفُهُ مِنْ خِلَالِهَا عَنِ الْقَوَامِ وَالسَّدَادِ، وَالْوَاجِبِ عَلَى الْمُسْلِمِ فِي هَذَا الْبَابِ، بَابِ تَرْكِةِ النَّفْسِ وَفِي كُلِّ بَابٍ أَنْ يُلْزَمَ نَفْسَهُ بِشَرَعِ اللَّهِ وَدِينِهِ الثَّابِتِ عَنْ رَسُولِهِ -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- وَأَنْ يَحْذَرَ مِنْ كُلِّ طَرِيقٍ وَسَبِيلٍ لَا أَصْلَ لَهُ فِي شَرَعِ اللَّهِ ﷻ.

ثم -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْكَرَامَ- يَحْتَاجُ الْعَبْدُ فِي هَذَا الْمَقَامِ، مَقَامِ تَرْكِةِ النَّفْسِ إِلَى أَمْرِ مَهْمٍ لِلْغَايَةِ لَا بَدَّ مِنَ التَّأَكُّدِ عَلَيْهِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ عَلَى ذِكْرِ دَائِمٍ لِلْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَالْمَجَازَاةِ وَالْمَحَاسَبَةِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]، وَمِنْ أَوَاخِرِ مَا نَزَلَ عَلَى نَبِيِّنَا -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وَفِي الْحَدِيثِ وَفِي سَنَدِهِ مَقَالٌ وَلَكِنْ مَعْنَاهُ صَحِيحٌ لَا رَيْبَ فِي صِحَّةِ مَعْنَاهُ: «الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسُهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، ثُمَّ تَمَنَّى عَلَى اللَّهِ»^(٢) الْكَيْسُ أَيُّ: النَّبِيهِ الْفَطْنِ الَّذِي يَحَاسِبُ نَفْسَهُ وَيُعِدُّهَا لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ؛ يَعِدُّهَا لِلْقَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي.

ثم أمر أخير أختتم به ألا وهو -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- يَنْبَغِي عَلَى مَنْ أَكْرَمَهُ اللَّهُ ﷻ بِالْإِسْتِقَامَةِ وَوَقَّعَهُ لِلرَّعَايَةِ لِنَفْسِهِ وَالْعَنَايَةِ بِهَا أَنْ يَذْكُرَ دَائِمًا أَنَّ هَذَا مُحَضَّضُ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ وَمِنْهُ ﷻ، وَأَنَّهُ لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْهِ لَمَا اسْتَقَامَ وَلَمَا اهْتَدَى، فَيَحْذَرُ فِي هَذَا الْمَقَامِ مَنْ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى نَفْسِهِ نَظَرَ الْإِعْجَابِ أَوْ الثَّنَاءِ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ التَّزْكِيَةِ لَهَا، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]، وَيَقُولُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٩].

فَإِذَا أَكْرَمَ اللَّهُ ﷻ عَبْدًا وَوَقَّعَهُ لِسُلُوكِ طَرِيقِ الْهَدَايَةِ وَلِزُومِ سَبِيلِ الْإِسْتِقَامَةِ فَعَلَيْهِ أَنْ يَذْكُرَ أَنَّ هَذَا

(١) علقه البخاري في «صحيحه» (كتاب الإيمان، باب الدين يسر)، ووصله في «الأدب المفرد» (ح ٣٨٧)، وحسن إسناده ابن حجر في «فتح الباري» ﷻ. وهو الحديث رقم (٨٨١) من «الصحيح» للألباني ﷻ.

(٢) أخرجه الترمذي ﷻ (ح ٢٤٥٩)، وابن ماجه (ح ٤٦٠)، من حديث شداد ابن أوس ﷻ، وضعفه الألباني ﷻ في «الضعيفة» (ح ٥٣١٩).

محض فضل الله تعالى عليه ومنه عليه، فلا ينظر إلى نفسه نظر إعجاب؛ بل يكون حامداً شاكراً مثنياً على مولاه ﷺ، وقد ذكر الله -جلّ وعلا- في صفات المؤمنين الكَمَل فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون] أي: يقدمون ما يقدمون من طاعات وعبادات وقلوبهم خائفة، قد جاء في «المسند»^(١) أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها سألت النبي -عليه الصلاة والسلام- عن معنى هذه الآية الكريمة وقالت: يا رسول الله؛ أهو الرجل يزني ويسرق ويقتل ويخاف أن يُعَذَّب؟! قال: «لا يا بنت الصديق ولكنّه الرجل يُصَلِّي ويصوم ويتصدّق ويخاف ألا يُقبَل منه»، ولهذا قال الحسن البصري رضي الله عنه تعالى: (إنّ المؤمن جمع بين إحسان ومخافة والمنافق جمع بين إساءة وأمن) المؤمن يحسن في العمل ويخاف، والمنافق يسيء في العمل وآمن.

فالواجب على المسلم أن يجاهد نفسه على تقوى الله ﷻ ونيل رضاه، وأن ينظر إلى نفسه دائماً نظر التّقصير والتّفريط، ويلوم نفسه على تقصيرها وتفريطها، ويجاهد نفسه على البعد عن الذّنوب والآثام التي تحريمه من الخير وتحول بينه وبين نيل الفضائل والبركات في الدنيا والآخرة، ويكون مُقبلاً على ربّه ﷻ يرجو رحمته ويخاف عذابه ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء].

وأسأل الله الكريم ربّ العرش العظيم بأسمائه الحسنی وصفاته العليا وبأنّه الله الذي لا إله إلا هو الذي وسع كلّ شيء رحمةً وعلماً، أن يوفّقنا جميعاً لكلّ خير، وأن يصلح لنا شأننا كلّهُ، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايعنا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

اللهم آت نفوسنا تقواها وزكّها أنت خير من زكّاها أنت وليّها ومولاها.

اللهم أعنّا ولا تُعن علينا، وانصرنا ولا تنصر علينا، وامكر لنا ولا تمكر علينا، واهدنا ويسر الهدى لنا وانصرنا على من بغى علينا.

اللهم اجعلنا لك شاكرين لك ذاكرين إليك أوّاهين منيبين، لك مخبتين لك مطيعين.

اللهم تقبّل توبتنا واغفر حوبتنا وثبّت حجّتنا واهد قلوبنا واسأل سخيمة صدورنا.

اللهم وأصلح ذات بيننا وألف بين قلوبنا واهدنا سُبُل السّلام، وأخرجنا من الظّلمات إلى النّور

(١) (ح ٢٥١٣٩)، وأخرجه الترمذي رضي الله عنه (ح ٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨).

وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وأزواجنا وذرياتنا وأموالنا وأوقاتنا، واجعلنا مباركين أينما كنا.

اللهم آمناً في أوطاننا، وأصلح أئمتنا وولاة أمورنا.

اللهم وفق ولاة أمرنا لكل خير، واهداهم يا حيّ يا قيوم لما تُحبّه وترضاه من سيد الأقال وصالح الأعمال.

اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأصلح لنا شأننا كلّ لا إله إلا أنت.

والحمد لله أولاً وآخراً، وله الشكر ظاهرًا وباطنًا، وصلى الله وسلّم وبارك وأنعم على عبده ورسوله نبينا محمد، وآله وصحبه أجمعين.



[أسئلة وأجوبة]

سؤال (١): صاحب الفضيلة أشهد الله عز وجل على حبكم في الله، نحن طلبة على أبواب التخرج فخرجو من فضيلتكم أن تتفضلوا علينا بالنصيحة.

وكذلك في نفس الموضوع يقول سائل آخر: نحن إخوة من فرنسا ونريد منكم نصيحة وستترجم بالفرنسية، أحسن الله إليكم.

الجواب: أولاً أحبكم الله جميعاً وجعلنا جميعاً من المتحابين في الله وجمعنا جميعاً على طاعة الله عز وجل وما يقرب إليه.

وأما النصيحة التي يطلبها هذا الأخ فما مضى معنا في هذا اللقاء هو من جملة النصيحة التي أسديها له ولنفسه ولنا جميعاً، وأنّ العناية بتزكية النفس مطلبٌ عظيم ومقصودٌ جليل، وعلى العبد الموفق أن يعتني بذلك عنايةً عظيمة.

ثم أيها الإخوة الكرام عندما يُطلب مني هذا الطلّب يحتر من طلّب منه في المضامين التي يطرحها على هذا المستنصح؛ لكنني أكتفي هنا بأثر عظيم ونافع للغاية وجميل أن نحفظه وأن ننشره بيننا وبين إخواننا وأحبّتنا وأن نترجمه لعظيم نفعه وكبير فائدته، وهو أن رجلاً كتب لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال له: أكتب لي العلم كلّ.

ما رأيكم في هذا الطلّب؟

عندما يرسل إلى عالم أو فقيه مثل هذا الطلّب: أكتب لي العلم كلّ، لكن انظر للجواب المسدّد.

قال: اكتب لي العلم كلّ، فكتب إليه ابن عمر رضي الله عنهما: إنّ العلم كثير؛ لكن إن استطعت أن تلقى الله

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَفِيفٍ الظَّهْرِيُّ مِنْ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، خَمِصَ الْبَطْنِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، كَافَّ اللِّسَانَ عَنْ أَعْرَاضِهِمْ فَاغْفَلَ.
إِذَا اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْنِيَ بِهَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ جَمَعْتَ لَكَ الْخَيْرَ، وَهَذِهِ الْأُمُورُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا ابْنُ
عَمْرِ جَمَعَهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي خُطْبَةِ الْوَدَاعِ تِلْكَ الْخُطْبَةُ الْعَظِيمَةُ الْجَامِعَةُ الَّتِي الْقَاهَا عَلَى مَسَامِعِ الْجُمُوعِ
الْغَفِيرَةِ الَّتِي اجْتَمَعَتْ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ قَالَ لَهُمْ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فِي ذَلِكَ الْجَمْعِ الْمُبَارَكِ: «يَا أَيُّهَا
النَّاسُ، أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟»، قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، قَالَ: «فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟»، قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ، قَالَ: «فَأَيُّ شَهْرٍ
هَذَا؟» قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ، قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي
بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا»^(١) فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أُمُورٍ عَظَامٍ وَكِبَارٍ وَمَهْمَةٌ لِلْغَايَةِ يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَعْنِيَ بِهَا
عَنَايَةً دَقِيقَةً، أَنْ يَكُونَ لَيْسَ فِي ذِمَّتِهِ تَعَرُّضٌ لِأَيِّ أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَا بِحَرْجٍ يَسِيرٍ وَلَا بِنَقْطَةِ دَمٍ، وَأَنْ
يَلْقَى اللَّهَ ﷻ وَلَيْسَ فِي بَطْنِهِ أَمْوَالُ الْمُسْلِمِينَ أَكْلَهَا بِالْحَرَامِ وَالشُّحْتِ وَالْإِعْتِدَاءِ وَأَنْ يَلْقَى اللَّهَ ﷻ وَقَدْ
كَفَّ لِسَانَهُ عَنْ عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ لَا يِنَالُهَا بِشَيْءٍ مِنْ هَذَا، فَهَذِهِ وَصِيَّةٌ عَظِيمَةٌ جَامِعَةٌ نَافِعَةٌ جَمَعْتَ خَيْرًا
عَظِيمًا وَنَفْعًا كَبِيرًا.

سؤال (٢): إمام مسجد يقول: ما هو الكتاب الذي يعتني بأعمال القلوب وتشخيص دوائها مع ربط
هذه المسألة بعقيدة أهل السنة والجماعة يُدَرِّسُ لِلنَّاسِ عَامَّةً فِي الْمَسْجِدِ.

الجواب: حقيقة أنفع ما يكون في هذا الباب كتاب «رياض الصالحين» للنَّوَوِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، هَذَا الْكِتَابُ
حَقِيقَةٌ مُبَارَكَةٌ وَنَافِعَةٌ جَدًّا، وَجَمَعَ فِيهِ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَحَادِيثَ مَهْمَّةً لِلْغَايَةِ، وَلَا يَزَالُ كَثِيرٌ مِنَ الْأُئِمَّةِ فِي
زَمَانِنَا هَذَا وَقَبْلَهُ يَقْرَءُونَ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ عَلَى جَمَاعَةِ الْمَسْجِدِ؛ لَكِنْ يَنْبَغِي لِلْإِمَامِ أَنْ يَرَاجِعَ وَأَنْ يَقْرَأَ
فِي كَلَامِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي بَيَانِ مَعْنَاهَا، وَلَشَيْخُنَا الْعَلَامَةُ الشَّيْخُ ابْنُ عَثِيمِينَ شَرْحَ مَطْبُوعٍ وَنَافِعٌ جَدًّا وَفِيهِ
تَعْلِيلَاتٌ ثَمِينَةٌ وَنَفِيسَةٌ جَدًّا عَلَى رِيَاضِ الصَّالِحِينَ فَيُمْكِنُ أَنْ يَسْتَفِيدَ مِنْ تِلْكَ التَّعْلِيلَاتِ، وَفِي الْبَابِ
رِسَالَتٌ وَمُؤَلَّفَاتٌ وَكُتُبٌ نَافِعَةٌ مُفِيدَةٌ جَدًّا.

فِيمَا أَيْضًا أَوْصَى بِهِ فِي هَذَا الْبَابِ رِسَالَةٌ قِيَمَةٌ جَدًّا لِابْنِ الْقِيَمِ مَطْبُوعَةٌ بِاسْمِ «رِسَالَةِ ابْنِ الْقِيَمِ إِلَى
أَحَدِ إِخْوَانِهِ» هَذِهِ رِسَالَةٌ ثَمِينَةٌ قَصِيرَةٌ تُقْرَأُ فِي نِصْفِ سَاعَةٍ لَكِنَّهَا حَقِيقَةٌ رِسَالَةٌ ثَمِينَةٌ لِلْغَايَةِ، وَفِيهَا
وَصَايَا نَافِعَةٌ جَدًّا فِي هَذَا الْبَابِ الَّذِي تَتَحَدَّثُ عَنْهُ بِالِاخْتِصَارِ الْمُفِيدِ وَالِإِيجَازِ النَّافِعِ.

سؤال (٣): شيخنا الفاضل قرأت لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ» فِي مَنْزِلَةِ التَّوَكُّلِ أَنَّ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ (ح ١٧٣٩) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَحِمَهُمَا.

العاصي في معصيته يتوكل على الله، ومعلوم أن التوكل عبادة فهل يؤجر على هذه العبادة وكيف نفهم هذا النص بارك الله فيكم؟

الجواب: التوكل على الله كما ذكر أهل العلم مصاحبٌ للمسلم في كلِّ أموره وجميع أعماله وفي مصالحه الدنيوية والدنيوية على حدٍّ سواء فيحتاج في ذلك إلى توكل على الله ﷻ ولا غنى له عن التوكل. ولهذا كان -عليه الصلاة والسلام- يُرشد من خرج من بيته لمصالحه الدنيوية والدنيوية أن يقول: «باسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله»، قال: إذا قال ذلك قيل: هُديت وكُفيت ووفيت، وتنحى عنه الشيطان وقال لشيطان آخر: كيف لك سبيل لشخص هدي وكفي ووفى^(١).

فالتوكل يحتاج إليه العبد في كلِّ مصالحه، والواجب على المسلم أن يكون بعيداً عن المعاصي مجاناً لها مبتعداً عن الوقوع فيها، فإذا كان يستعين بالوسائل الشرعية على أمورٍ محرمة ووسائل باطلة فإنه يكون بذلك آثماً واقعاً فيما يُسخط الله -جلّ وعلا- ويغضبه، ولهذا يجب على الإنسان أن يكون دائماً وأبداً متوكلاً على الله مستعيناً بالله وأن يكون توكله على الله ﷻ في فعل ما أمر جلّ وعلا عباده به في فعل للطاعات واجتناب للمعاصي والآثام.

سؤال (٣): سائل يسأل عن لفظة (نستهديه) هل هي ثابتة في خطبة الحاجة؟

الجواب: (نستهديه) أي نطلب منه الهداية، والاستهداء هذا أعظم دعاء يدعو المسلم ربّه ﷻ أن يُمّنَّ عليه به، ولهذا جاء هذا الدعاء وهذا الطلب فرضاً لازماً على المسلم في اليوم ١٧ مرة يسأل الله الهداية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿١﴾ ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿٢﴾ ﴿فَهَذِهِ الدَّعْوَةُ﴾ ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ تتكرر مع المسلم كل يوم فرضاً ١٧ مرة بعدد الركعات في الصلاة المفروضة.

وخطبة الحاجة: «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهِ وَأَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا» لكن طلب الهداية من الله ﷻ هذا أعظم مطلب.

سؤال (٤): أحبُّك في الله يا شيخنا أحسن الله إليكم، أنا طالب علم والحمد لله، لكنني أعاني من معصية أقوم بها خاصّة عند خلوتي، ثم أتوب منها وأبكي وأندم؛ ولكن ما هي إلا أيام وأعود إليها وبسببها صرت عاجزاً عن تحصيل العلم وطلبه، ووالله إنني لأحبُّ العلم ولكن هذه المعصية تمنعني، فدلّني على الحل قبل فوات الأوان -بارك الله فيكم- وإنّي والله أخشى أن يُختم لي بالسوء، أحسن الله

(١) أخرجه الترمذي رحمه الله (ح ٣٤٢٦) عن عائشة رضي الله عنها، وابن ماجه (٣٨٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إليكم؟

الجواب: أولاً أسأل الله الكريم ربَّ العرش العظيم أن يهدينا جميعاً وإياك صراطه المستقيم، وأن يعيدنا جميعاً من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، وأن يصلح لنا شأننا كله.

وأما العلاج فيكون بأمورٍ عديدة أهمها - أيها الأخ الكريم - أن تكون على ذكر دائمٍ لأكبر واعظ، يقول الشيخ المفسر الشنقيطي رحمته الله: اتفق أهل العلم على أن أكبر واعظ وأعظم زاجر أن تعلم أن الله يراك .

وفي هذا قيل:

إذا خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل عليّ رقيب
جاء في جامع الترمذي وغيره أن النبي -عليه الصلاة والسلام- قال: « استحيوا من الله حقَّ الحياء »^(١)، وأوجب الحياء وأصوبه الحياء من ربِّ العالمين وخالق الخلق أجمعين.

والواجب على المسلم في خلوته أن يكون على ذكر تام وعلم يقيني أن ربَّ العالمين ﷻ مطلع عليه ولا تخفى عليه خافية ﴿يَعْلَمُ الْسِّرَّ وَآخَفَى﴾ [طه]، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر]، وألا تكون حال الإنسان في خلوته كحال من قال الله عنهم: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنْ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنْ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨] فعلى الإنسان في خلوته أن يتقي الله فإذا حدثته نفسه بالمعصية يذكرها بروية الله وإطلاعه، وأنه ﷻ سميع بصير عليم خبير، لقمان الحكيم يقول لابنه في وصيته له: ﴿يُبْنَىٰ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان] احذر وتذكر أنك ستلقى الله، وأن الله ﷻ سيحاسبك، وأن هذه الأعمال ستُحفظ يوم القيامة ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف] وما الذي يستفيد الإنسان إذا مضى مطاوعاً لنفسه مستسلماً لنزواتها وشهواتها وملذاتها، ثم يتحمل بعد ذلك عواقب وخيمة، وما أحسن ما قيل :

تفنى اللذائذ ممَّن نال صفوتها من الحرام ويبقى الخزي والعار
وتبقى عواقب سوء من مغبتها لا خير في لذة من بعدها النار
أي: خير يجنيه الإنسان من شهوات محرمة ولذائذ طاغية ثم يتحمل بعد ذلك تبعة تلك الذنوب

(١) أخرجه الترمذي رحمته الله (٢٤٥٨) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وحسنه الألباني رحمته الله.

وتبعة تلك المعاصي في الدنيا والآخرة، فليَتَّقِ الله العبد وليزجر نفسه بالقرآن وبالمواعظ العظام التي في كتابه، وأعظم واعظ أن تعلم أن الله يراك، وأنه ﷻ مَطَّلَعٌ عَلَيْكَ، والله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

سؤال (٥): هل يكفي الإنسان أن يتوب ممَّا وقع فيه من الشُّرك توبةً عامَّةً، أم لا بدَّ أن يحصى أفراد ما وقع فيه من الشُّرك ثم يتوب من كلِّ فرد على حدة، بارك الله فيكم؟

الجواب: التَّوبَةُ مِنَ الذُّنُوبِ لَا يُشْتَرَطُ فِيهَا أَنْ يَحْصِيَ الذُّنُوبَ ذَنْبًا ذَنْبًا، فَيَتُوبُ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ بَعِينَهُ توبةً تفصيليَّةً، يذكر كلَّ ذَنْبٍ ثُمَّ يَتُوبُ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ بَعِينَهُ، هَذَا لَا يَشْتَرَطُ، وَلَوْ كَانَ مُشْتَرَطًا لَكَانَ الْأَمْرُ غَيْرَ مُمْكِنٍ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَنْسِي أَعْمَالَهُ، وَلَوْ قِيلَ لِأَحَدِنَا: مَاذَا تَذَكَّرَ مِنْ أَعْمَالِكَ فِي الْأُسْبُوعِ الَّذِي مَضَى، يَجِدُ أَنَّ أَكْثَرَهَا قَدْ نَسِيَ، قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]، وَمَا سُمِّيَ الْإِنْسَانُ إِلَّا لِنَسْيَانِهِ، فَلَوْ كَانَ الْمَطْلُوبُ عِنْدَ التَّوبَةِ مِنَ الذُّنُوبِ أَنْ يَتُوبَ مِنْهَا توبةً تفصيليَّةً بِمَعْنَى يَذْكُرُ الذُّنُوبَ تفصيلاً وَيَتُوبُ مِنْهَا، فَهَذَا طَلَبٌ لِأَمْرٍ غَيْرٍ مُمْكِنٍ، وَالشَّرِيعَةُ لَمْ تَأْتْ بِهَذَا؛ وَلَكِنْ مَطْلُوبٌ مِنْهُ أَنْ يَتُوبَ توبةً صادقةً مِنْ جَمِيعِ الذُّنُوبِ مَا عِلِمَهُ مِنْهَا، وَمَا لَمْ يَعْلَمْهُ مَا يَذْكُرُهُ مِنْهَا وَمَا نَسِيَ، التَّوبَةُ مِنْ جَمِيعِ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا، يَصْدُقُ مَعَ اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- فِي التَّوبَةِ سِوَاءٍ فِي الشُّرْكِ أَوْ غَيْرِهِ، وَإِذَا تَابَ الْعَبْدُ توبةً صادقةً مِنْ جَمِيعِ الذُّنُوبِ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ جَمِيعَ الذُّنُوبِ، فَالتَّوبَةُ تَجِبُ مَا كَانَ قَبْلَهَا وَتَمْسَحُ مَا كَانَ قَبْلَهَا، إِذَا تَابَ إِلَى اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- توبةً صادقةً مِنْ جَمِيعِ ذُنُوبِهِ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، وَالْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرُ وَكُلُّ خَطَاٍ مِنْ تَابَ إِلَى اللَّهِ ﷻ توبةً صادقةً غَفَرَ اللَّهُ ﷻ لَهُ ذُنُوبَهُ، وَجَاءَتْ صِيغَةُ الاسْتِغْفَارِ تَتَنَاولُ الاسْتِغْفَارَ مِنَ الذُّنُوبِ تَنَاولًا فِيهِ شَيْءٌ مِنَ التَّفْصِيلِ مِثْلُ قَوْلِ النَّبِيِّ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ دَقَّه وَجَلَّه أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ» كَذَلِكَ قَوْلُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي»، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ فِي حَدِيثِ شَدَّادِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» فَمِثْلُ هَذَا الاسْتِغْفَارِ وَمِثْلُ هَذِهِ التَّوبَةِ النَّافِعَةِ الْجَامِعَةِ إِذَا كَانَ الْعَبْدُ صَادِقًا مَعَ اللَّهِ ﷻ بِهَا، وَتَائِبًا إِلَى اللَّهِ مِنْ جَمِيعِ ذُنُوبِهِ حَتَّى وَلَوْ كَانَ لَا يَذْكُرُ التَّفَاصِيلَ فَإِنَّهَا تُغْفَرُ لَهُ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

سؤال (٥٦): ما هو الضَّابط الذي يميِّز الخبر عن الصِّفة بارك الله فيكم؟

الجواب: باب الأخبار أوسع من باب الصِّفات، وباب الصِّفات أوسع من باب الأسماء، وهذه

القاعدة تتعلق بفقهِ أسماء الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- وصفاته، والأسماء والصفات توقيفية؛ بمعنى أن معرفة الاسم ومعرفة ثبوته لله يتوقف فيه على الكتاب والسنة، فنثبت من أسماء الله السميع البصير في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وهكذا في سائر أسماء الله نثبتها لثبوتها في كتابه أو لثبوتها في سنة نبيه عليه الصلاة والسلام.

وباب الصفات أوسع في طريقة معرفة، فالصفة تعرف من خلال التخصيص عليها مثل قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾ [المنافقون: ٨]، تعرف من خلال الفعل الثابت لله الدال على الصفة ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [١٦] ﴿طه﴾، ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ [المجادلة: ١] هذا في إثبات السمع من جهة الفعل الدال على الصفة، وكذلك من خلال الاسم؛ لأن كل اسم من أسماء الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- دال على ثبوت صفة كمال الله فنثبت من اسمه السميع صفة السمع، العليم العلم، الرحيم الرحمة، العزيز العزة، وهكذا فهذا باب الصفات وهو أوسع من باب الأسماء.

وباب الإخبار أوسع وهو أن يطلق عن الله ﷻ بلازم أسمائه وصفاته إن صحَّ أنه لازم.

سؤال (٥٧): هل تذكر بعض المواقف الطيبة أو المؤثرة في هذه العجالة مع الشيخ الوالد عبد

المحسن حفظه الله والشيخ عبد الله الغديان رحمهما الله؟

الجواب: المواقف التي تذكر لأهل العلم والفضل والمشايخ النبلاء كثيرة جداً سواء الشيخ الوالد أو الشيخ الغديان رحمهما الله، وقد توفي بالأمس رحمه الله وغفر له، والصلاة عليه هذا اليوم -نسأل الله ﷻ أن يغفر له ولجميع العلماء المسلمين وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات- المواقف كثيرة، وحياة هؤلاء العلماء الأفاضل حياة مليئة بالعبر والعظات والدروس النافعات لمن يوفقه الله ﷻ ويكرمه بالعلم النافع المستمد من كتاب الله ﷻ وسنة نبيه -صلوات الله وسلامه عليه- لكنني أشير فقط لشيء يتعلق بالوالد -حفظه الله- أنه قبل أيام قلائل أنهى شرحه لسنن ابن ماجه في درسه اليومي في مسجد النبي ﷺ، وكان بدأ بشرحه لكتب الأمهات الستة لأحاديث النبي -عليه الصلاة والسلام- في أوائل محرم من عام ١٤٠٦هـ في درس يومي عدا يوم الخميس بعد المغرب، ويتوقف في بعض الإجازات، فخلال ست وعشرين سنة ختم قبل أيام الكتب الستة شرحاً وتعليماً وتدریساً في مسجد النبي -عليه الصلاة والسلام- أسأل الله ﷻ أن يتقبل منه ذلك وكل عمله بقبول حسن وأن يوفقنا جميعاً للعلم النافع والعمل الصالح وأن يهدينا سواء السبيل وأختم اللقاء بما بدأت به شاكرًا لكم

حضوركم وجلوسكم وصبركم وأسأل الله ﷻ أن يتقبل منكم ذلك بقبول حسن، وأسأله -جلّ وعلا- أن يجعل مجلسنا هذا لوجهه خالصاً وله نافعاً، وأن يثقل به موازيننا يوم نلقاه عزّ وجلّ.

وأسأله أن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايعنا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

ربّنا تقبل منّا إنّك أنت السميع العليم، واغفر لنا إنّك أنت الغفور الرحيم، وتُب علينا إنّك أنت التّواب الرحيم.

والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلّم على عبده ورسوله نبينا محمّد وآله وصحبه أجمعين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

الفهرس

٢	مقدمة.....
٣	العلم وأهمية.....
٤	أهمية خطبة الحاجة في موضوع التزكية.....
٥	التزكية منه إلهية.....
٦	الدعاء وأهمية في تزكية النفس.....
٧	ماهية النفس.....
٨	النفس المطمئنة.....
٨	النفس الأمارة بالسوء.....
٨	النفس اللوامة وهي قسمان.....
٩	حاجة النفس إلى المحاسبة من صاحبها.....
٩	مثل من الإمام الآجري عن النفس.....
١٠	مثل من العلامة ابن القيم عن النفس.....
١١	تأكد محاسبة العبد لنفسه في الدنيا.....
١٢	الأمر التي تزكو بها النفس.....
١٢	الأمر الأول: الإيمان بالله والإخلاص له.....
١٣	القيام بالفرائض واجتناب النواهي.....
١٥	الأمر الثالث: فعل الرغائب والمستحبات.....
١٥	تزكية النفس موكول للرسول.....
١٦	لابد من الوسطية في تزكية النفس.....
١٦	نقل عن ابن القيم في باب الوسطية في تزكية النفس.....
١٨	لابد أن يكون العبد على ذكر بأنه سيقف أمام ربه.....

- لا بد أن يعلم العبد أن الهداية محض تفضل من الله ١٨
- الخاتمة ١٩
- [أسئلة وأجوبة] ٢٠
- سؤال (١٠): صاحب الفضيلة أشهد الله عَزَّوَجَلَّ على حبكم في الله، نحن طلبة على أبواب التخرج فخرجوا من فضيلتكم أن تفضلوا علينا بالنصيحة ٢٠
- سؤال (١٢): إمام مسجد يقول: ما هو الكتاب الذي يعتني بأعمال القلوب وتشخيص دوائها مع ربط هذه المسألة بعقيدة أهل السنة والجماعة يُدرّس للناس عامّة في المسجد ٢١
- سؤال (١٣): شيخنا الفاضل قرأت لابن القيم - رحمه الله - في مدارج السالكين في منزلة التوكل أن العاصي في معصيته يتوكل على الله ومعلوم أن التوكل عبادة فهل يؤجر على هذه العبادة وكيف نفهم هذا النص بارك الله فيكم؟ ٢١
- سؤال (١٤): سائل يسأل عن لفظة (نستهديه) هل هي ثابتة في خطبة الحاجة؟ ٢٢
- سؤال (١٥): هل يكفي الإنسان أن يتوب ممّا وقع فيه من الشرك توبة عامّة، أم لا بدّ أن يحصي أفراد ما وقع فيه من الشرك ثم يتوب من كلّ فرد على حدة، بارك الله فيكم؟ ٢٤
- سؤال (١٦): ما هو الضابط الذي يميّز الخبر عن الصفة بارك الله فيكم؟ ٢٤
- سؤال (١٧): هل تذكر بعض المواقف الطيبة أو المؤثرة في هذه العجالة مع الشيخ الوالد عبد المحسن حفظه الله والشيخ عبد الله الغديان رَحِمَهُمُ اللهُ؟ ٢٥
- الفهرس ٢٧

أودُّ أن أذكر للإخوان شيئاً يجول في خاطري لكن أحبُّ أن أذكره: جميع الحاضرين في القاعة والموجودين في الخارج واحداً واحداً أودُّ أن أعانقهم وأصافحهم؛ ولكن الوقت لا يكفي ولو حقّقنا هذا المطلب ربّما يفوتني السّفر، فهذا الشّعور أخبركم به، وأسأل الله أن يوفّقنا للخير، وأن يجمعنا على ذلك.